



أمسية الميلاد لدي الصعلوك لللكاتب الشيلي سلفادور رايسر

بمعلم الأديب سليمان علي

—•••••—

كان يلبس بدلة سمرة أحمر اللون طويل الذيل ، وعلى أذنيه الشعر واين تقوم في أتران دقيق قيمة فخمة مريشة ، وفي هذا اللباس الرسمي التاريخي كان يرقص فوق صندوق الموسيقى . وكان أمامه على الدوام حشد من النظارة ، من الصغار والكبار ، مجتمعين حول العزف للتفرج عليه ، معجبين بالمهارة التي يتتبع بها أنغام الموسيقى المتغيرة ، في نشوة من الضحك من حركاته المثيرة .

وكان لوجهه قدرة عجيبة على الحركة ، ولم تنجب الطيبة مخلوقاً أشد دهاء في تعبيراته الناطقة ، وله هذه التروة من الحركات المضحكة ، وهذا الجسم الصغير العجيب المرن الذي تسكنه روح ذات حظ مماثل من المهارة والرغبة في بعث السرور والبهجة . وكانت الموسيقى ، وهي حياته الهائمة ، والحشد من النظارة ، كلها تجلب له التمتع ، فاذا جذبته طفل من ذبلة مرة ، لم يفضبه ذلك أكثر مما يفضب من الشمس التوهجة على حفاف الطريق ، أو من البقع التي يشحب لونها رويداً على ثوبه الأحمر الجليل . وكان سميداً ، وكان اسمه بيبي ، وكان بالطبع قرداً .

وفي بعض الأحيان تتحرك خلطه السوداء من فرط الحنين لوطنه ، كما لو كانت بفعل الريح . فيسمع مرة أخرى أغنية وطنه الغاب ، الصداح بالأطيار ، ويرى الفهد ينساب بين الأجم ، والنماسيح ترحف من الطين ، ويتنم عبير الأزهار الهائلة الدائمة التفتح في الحرارة الدائمة . وحينئذ يحرك ذراعيه الطويلتين ، ويتذكر كيف كان يتسابق فوق أعالي الأشجار ، أو ينزلق برشاقة على جذوعها المعمرة ألف عام ، ويذكر وفي قلبه وخزة تلك الكروم التي تنظم كالدانتلا بين أصابع الغاب الهائلة .

بيد أن هذه الأشياء ما كانت ثقلة إلا فيما يبدو ، فلقد كانت الحياة جميلة ولم يكن مستعبداً كغيره من القردة . كان يسافر في الطريق حراً مع سيده الذي كان صديقه كذلك . وإذا ما شعر بحاجة إلى الرياضة ، كان في وسعه دائماً أن يرقص على المنزف . وكان رقصه حقاً نوعاً من العبادة ، وكان القربان الذي يقدمه إلى ذكرياته عن الغابات الهائلة . ولم تسكن لديه رغبة للمودة إليها إذ كان ذلك معناه فراق سيده ، بيترسون الذي ، كان يعبده عبادة . ولم يكن بيترسون يمتاز بشيء . ولكنه كان في نظر بيبي يحتل مقام الإله . وكان ما يزال شاباً ، شديد الفحول ، عيناه متمبتان زرقاوان ، وشمره طويل جميل ، ميل للصفرة ، ولحيته مهملة . وكان رث الملابس ، يمشي مشية بطيئة منتظمة ، تلك المشية المألولة التي يشبهان من يدرك أن رحلته لن تكون لها غاية .

وكانت كل الطرق تعرف هذين الصعلوكين : الرجل الذي يحمل الصندوق ، وبيبي الذي إما أن يكون قابلاً على كتفه أو دائم الغفز في محاذاته ، وما كانا يمكنان طويلاً في مكان واحد ، فكل مكان يبلغانه كان نقطة وصول ورحيل مما . وفي الليل يتامان في جنبات الطرق تحت الأشجار ، ويفضلان دائماً جوار المياه ، عند نهر ، أو على الأقل عند فدير صغير .

وأحياناً يكون الجو قاتظاً ، وأخرى يكون قارراً . وكان بيترسون لا يابه لتقلبات الطقس ، أما بيبي فكان يكره البرد ، وفي الليالي الماصفة ، الداوية بالرياح ، كان يزحف تحت غطاء سيده الصوف السميك الذي كان يأتي به ويرمقه من تحته بمبتين قافتين لامبتين . وكان الرجل والقرد يفهمان بعضهما حق الفهم وكانا يتخاطبان بالإشارات البسيطة ، والكلمات ، والأصوات ، وكانا يشمران بتسلة غريبة وهما محوطان بوحدة الحقول الهائلة ، ووحدة الأرض نفسها التي تفوقها كثيراً ، كما يشمر الأخوان بأن كلا منهما ينتمي للآخر . وفي الظلام كان بيبي يمد يده الصغيرة الشمراء ، يلتمس الثقة وهو يدرك أنه واجد في ملمس هذا الرجل النحيف الأبيض الأمان والحب .

كان بيترسون الإله ، وبقية العالم من رجال وحيوان ، وشجر وحقول وسما ، أشياء أبدعها من موسيق مزفه . فاذا ما بدأت كان بيبي يرقص ، جاعلاً رجله يتبعان النغم في دقة ، يلتقي بكليته

ووقف بترسون ساكنا لا يريم ، وطرفه معلق بالشجرة .
لم تكن شجرة حقيقية ، ولكنها صنعت بمهارة من الورق المقوى
والقماش ، غير أنها كانت في نفس بترسون محملة بالذكريات كأنما
ينبعث من أبرها صمغ الصنوبر من مسقط رأسه ، وكأنها تميل أمام
الرياح العاتية في تلك الخلدجان البعيدة ، حيث الوجوه القديمة
المحبوبة ، وقد حدثته الشجرة بلنتهم ، وهي تهمس في رفق عبر
العين التي تنسل بينهم .

وكان يبي يرتمش على كتفه في تماطف . ومع أن الشجرة
المقلدة لم تكن تهمة في شيء إلا أن طول الصحبة هيا له سبيل
النفاذ إلى قلب سيده ، فأحس الآن بشيء غريب وحزين في أعماقه ؛
لذلك تملن بالسكتف المريض وأخذ يرتمش ، وأحس بحنين إلى
مسقط رأسه دون أن يدرك السبب .

« هلا تفضلت وأنت من هنا ؟ » كان الصوت المتكلم متقدماً
في السن حاراً ، وكانت صاحبه متقدمة في السن ذات حرارة
أيضاً . ورمقتها بمطف وقالت ثانية « من هنا ... هنا تماماً ... »
وهز بترسون نفسه وتبعها مجتازاً الجهو ودخل من باب
مفتوح . وكان في الغرفة التي دخلها سبي أبيض الوجه مستلق
على سريره في فتور . وأزل بترسون العزف عن ظهره ، وبدأ
بدير الذراع . وتدفق النغم منه في قوة غير متقطرة بينما ترددت
على حوائط المنزل أسداء وأصداء .

كانت نفس الموسيقى ، الفالس القديم الذي تردد مراراً
وتكراراً . بيد أنه كان هناك اختلاف . وكان يبدو للصموك أن
المعزف قد إيقاعه الميكانيكي المألوف وأنه لبي نداء عاطفته ، كأنه
آلة صنعت ليده بجرأة ... فشجرة عيد الميلاد تلك بثلجها الصناعي
المقلد ، وهذا المنزل الفسيح المضيء ، والقوم السنون الطيبون ،
والنلام الصغير ، جيمهم ، أدركتهم الموسيقى ، وكانت هناك
أيضاً ، الصور التي في قلبه : الغابات الشمالية والوجوه واللثة التي كاد
ينسى كيف يتكلمها .

وبينما كان يلعب كان يبي يقفز في سعادة ، وجلس النلام
المريض في سريره يصفق بيديه الضعيفتين ، وأخيراً انتهى الدور ،
وصكت المعزف .

وكان بترسون يهم برفسه إلى كفه هدهد ما وجد نفسه العرة

إلى الحركات المعقدة التي تثيرها، ولم يكن ذلك بدافع العمل فحسب،
بل بدافع من غريزته الحيوانية ، بشعور مبهم لكنه عميق ، نحو
الإخلاص لسيده ونحو جمال المالم . وكان يرقص أحسن الرقص
عدد ما يكون أسعد حالاً وأطيب نفساً ، فيمبر بهذه الطريقة عن
شكره وعن فرحه لكونه حياً يرزق .

وفي غسق يوم ذهبي ، بلنا إحدى القرى . وكانت قرية صغيرة
ذات أربع راسيات يمتد على مدار الليل يرتش بين الأشجار بشدة
منازل فحسب . بيد أنه قبل أن يضع بترسون معزفه احتشد جمع
من الأطفال حوله . وكانوا يهتفون بمحبور لدى رؤيتهم يبي ، الذي
كان يماينهم بحركات وجهه ، ويأتي بحركات مضحكة ، وكلما
ازدادوا ضحكا ازداد سروراً . فلما صدحت الموسيقى ، نغمة ، مكهربة ،
كان في نشوة من الجهور ، ومالت قبته الريشة وهو يرقص ،
وأخذت ساقيه الضعيفتان تتحركان بسرعة تزداد شيئاً فشيئاً .

وأخذ الحشد يزداد ، وانضم إليه الآن بعض الكبار أيضاً ،
وكان بينهم شيخ حسن البزة يدخن غليوناً كبيراً ، وبطرق رأسه
مع الإيقاع الموسيقي ، وكان يرتق يبي بمطف وهو يرقص ،
وبترسون وهو يدير يد العزف كأنه رجل ييمت أمي قديماً ، ولما
انتهى المدر الثاني ، التيت بضم تقود في قبعة بترسون ، ولكنها
كانت قليلة ، فأهل الريف في كرمهم محتاطون . وبينما هو
يتأهب للذهاب أقبل الشيخ ذو التليون وحدثه قائلاً « لي حفيد
صغير مريض ، ولأن الليلة عيد الميلاد ، فاني أودع أن أقدم
إليه متممة فريدة ، فهلا قبلت أن تأتي وتلم له ؟ أقصد بجوارقراشه
لكي يستطيع ان يرى القرد وهو يرقص ؟ »

فأطرق بترسون موافقاً ، فلم يكن يحب استعمال الكلمات إذا استطاع
إلى ذلك سيلاً . وانطلقا في الطريق معاً — حتى بلنا (فيلا) ذات
سقف أجرد ، تقوم بين دغل من الأشجار السامقة . ودفع الرجل
باب السور ، وتبناه في الممشى المبلط اللتف حول أحواض الزهر
المتلاثة حتى بلنا المنزل . ولما وصلا إلى السلم كان يبي يهمهم
بإصوات التطلع والتحمس ؛ بيد أن بترسون كان يمشى بعزم .
ولكنهما ما كادا يجتازان عتبة البيت حتى وقف كالماأخوذ . فقد كان
في منتصف الجهو الواسع الجنبات شجرة من أشجار عيد الميلاد
مشرقة بالأوار .

يرد عليه ثم رفع معزفه إلى كتفه ، وأخذ يبني النمسان في ذراعيه وكان على مقربة من الباب عند ما أبصر العينين الزرقاوين مرة أخرى وابتسمت له من بعيد ، وابتسم الوجه جيمه في ثنيات تصاعديه ساحرة . رشدت يد بيترسون على مقبض الباب ، وشدت عظامها حتى أصبحت بيضاء اللون . وجدت ملاعه وهي تعبر عن امسى بالغ ، وكان وراه هاد موع لم تذر . فهو الذي مضت عليه سنوات لا يعرف له سكوناً أبويه ، ولا طريقاً يفصله عن طريق . هو الذي الذي لم يكن له من رفيع سوى قرده الرائق ، أدرك فجأة أنه سوف يعرف الآن الوحيدة الحقة . شجرة صنوبر شمالية معلق بها أنوار ، عينان جيلتان ، والمرّة الأولى الالوعة الكاملة للفراق ... وأحى رأسه ، بشكل مضحك . لقد كان يقول كلمة الوداع .

وفي الخارج ، كانت ظلال مكدسة وسكون وسما معلق بها أنجم هائلة منددة . وأغلق الباب خلفه ووقف على رأس السلم وهو يرسل الطرف في قلب الليل . كان وحيداً ، وسيكون وحيداً أبداً . دان تنتظره أنوار في نهاية الطريق ، والطريق نفسه لا نهاية له . زل أول سلمه ، ثم وقف فجأة . لقد فتح الباب مرة أخرى ، والتفت فبرأي ، العينين الزرقاوين ، والقاسية الطويلة الرقبته ، وقد تحدد قوامها وهو يومض بين إطار الليل المظلم . وتقدمت في تردد ومدت يدها . وقالت « ساعبي . لقد رأيت ... هنالك ... هل في الأماكن أن أم لك يد الميونة بأى سبيل ؟ » وجد بيترسون في مكانه برهة ، ثم أخذ اليد المدرودة اليه في بطء ، ولسها بشفتيه ثم تركها تسقط ، ووقف الجسم اللامع ساكناً في فتحة الباب ، والضوء يكال شعره كأنه السنة الذهب الصغيرة ، وانتزع نظرتيه بعيداً وأسرع في النزول من السلم وأغلق الباب أخيراً واسكنه لم يبطء من خطواته ، وكان يكاد يجرى حين بلغ قاعة الطريق . والتفت ذراعاً يبي حول رقبته وقرعت اجراس الكنائس إيداناً بصلاة منتصف الليل

محمد سليمان هلي

المهندس

الثانية ذلك المساء في غيبوبة من الماطفة ، قد هاجته وامسكت به ، وقد توقف ذراعاه في حركة صموده ، وعيناه محمقتان ، فن فوق رأس الشيخ كانت عينان في زرقة البحيرات الشمالية ترنوان إليه ، عينان ساكنتان هادئتان ، مايلتان بحنان لا يمتل . وتقدمت امرأة طوال ذات حسن وجمال وهي تبتم ، وربت على رأس يبي . وقالت إن الموسيقى كانت لطيفة جداً ، أفلا يمكنهم البقاء واللب أمام ضيوفها قبيل منتصف الليل ؟ ويمكنهم في نفس الوقت أن يستريحوا ويأكلوا في المطبخ . وأطرق بيترسون إطراقة خرساء . وخرج دون أن يجرؤ على النظر مرة أخرى .

وبعد بضع ساعات ، حينما عادوا إلى البهو كانت الشجرة متلاثة كسما صائفة بالليل . كانت مئات الشمعات تهرق على أعصابها ، وحولها لفيق من الناس يتكلمون ويضحكون كانوا يتنادون بالأسماء في ثقة كأنهم بذلك ينطقون بكلمة السر التي تسمح لهم بالدخول إلى وليمة الحياة . وكان الجو المرح ، مرح القلوب المؤتلفة ، يتدفق كالغيم التائق فوق رؤوسهم ، ولم تلمس بيترسون الومضة المتألقة ، وأحس أنه مطرود كليل . وظن لحظة أنه رأى العينين الزرقاوين اللتين أرتا فيه كل هذا التأثير ، ولكنهما غابا ثانية . وأنزل المزف باحتراس في أحد الأركان وانتظر الإذن بالمزف .

وسرعان ما أعطاه الشيخ ذو الغليون الإشارة . وصحا يبي الذي كان ممسكاً بلحيته وهو نسمان يدافع الخوف من صوت الموسيقى وقفز على سطح المزف . ولكن لم يلق إليه أحد بالاً . فقد بدأ الناس يرقصون ، رقصة الفالس على إيقاع الموسيقى ، التي كانت تنبث في اضطراب من المزف القديم ، وهم يفتنون بصوت أعلى من صوته التكمير ، في حبور وانشغال حتى أن أحداً منهم لم يدرك متى انقطع عن المزف . وراجع بيترسون إلى ركنه ، وهو من ارتباك لا يستطيع معرفة السبيل إلى الخروج .

ودوت في الفرقة أصوات اجراس كنسية آتية من بعيد ولكنها واضحة . وسكن القوم فجأة ، وأقبل الشيخ نحو بيترسون ووضع في يده حفنة من النقود ، وهو يشكره بأدب . فغمغم بيترسون